

ضوابط الكتابة فى الاعجاز العلمى فى القرآن والسنة

رزق الطويل

تمهيد :

كثرت الكتابة فى هذه الآونة حول قضية الاعجاز العلمى فى الكتاب والسنة، وتوفرت عليها أقلام الكاتبين من أعلام الاسلام وعلمائه، وكان وراء تعدد مجالات الكتابة فى هذا الموضوع بواعث كثيرة:

أولها: أن الاسلام الآن فى غزو جديد للفكر الغربى، وللشعوب الغربية ووسائل هذا الغزو ما تكشف لهم بوسيلة أو بأخرى من مصداقية النصوص الاسلامية لقضايا العلم والمعارف الانسانية حتى وجدنا علماء قضاوا حياتهم فى مختبرات البحث سارعوا الى الايمان وصدق الله العظيم : (انما يخشى الله من عباده العلماء)

ثانيها : وراء الاقبال الواضح على الكتابة فى هذه القضية كان يمكن أن نفع فى مخاطر لاتخدم القضية الاسلامية، لذا كان من الواجب أن نبحث فى وضع ضوابط للكتابة فى هذه القضية لتثمر ثمرتها فى دعم ايمان المؤمنين، والقضاء على ريب المرتابين، وازاءة الطريق أمام الراغبين مع تجنب المخاطر التى قد تحيط بالكتابة فى هذا الموضوع.

ثالثها : هناك عامل هام ومؤثر كان من أهم أسباب رواج الكتابة والكلام فى هذا الموضوع وهو أنه أسلوب جيد فى الدعوة الى الاسلام من خلال الاقناع بمكانته فى العلم والمعرفة وبما تشير اليه نصوص الكتاب والسنة من ظواهر علمية لم يدركها العلماء الا فى عصرنا الحاضر .

وما يعزز من قيمة هذه الوسيلة أن أوروبا شهدت عصرا كانت فيه مسيحييتها على عدا مع العلم، دفع بها الى الاتجاه للعلمانية وفصل الدين عن الدولة، فاذا رأت الاسلام على النقيض من هذا وهو فعلا كذلك، فلا بد لها أن تراجع موقفها من الدين، وستجد الاسلام يحقق لها ما تريد .

رابعها : لنا تحفظ على لفظ (الاعجاز) برغم شيوعه وشهرته فى كتب التراث مرادا به عجز المخالفين عن الاتيان بمثل ما أتى به النبى المرسل، فتحق عليهم كلمة الله، ولا يسع العقلاء منهم الا الاستجابة.

وفى تقديرى أن هذا اللفظ اصطلاح ابتكره علماء الكلام، وأعلام البلاغة الأوائل وهو غير دقيق فى التعبير عن المدلول الذى يحمله .

فالله تبارك وتعالى زود رسله بآيات تختلف باختلاف العصور والأزمنة التى أرسلوا فيها ولا يستطيع أن يأتى بمثلها معاصروهم، عند ذاك يدرك أصحاب الفطر السليمة أن هؤلاء مزودون بآية من الله. فليس الهدف اذن أن تعجز الناس أمام ما أتى به النبى وانما الهدف أن يهتدوا بما جاء به، وأما عجزهم فمقطوع به، اذ أنى للمخلوق أن يواجه آية من الخالق ؟

ولذلك لانجد فى القرآن لفظ (معجزة) وانما نجد بدلا منها لفظ (آية)، اذ يقول تعالى : (وقالوا لولا نزل عليه آية

من ربه) (١) . وقال سبحانه على لسان فرعون وقومه وهم يواجهون موسى عليه السلام: (ان كنت جئت بأية فأت بها ان كنت من الصادقين)(٢). (وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين)(٣) . وعلى لسان نبي الله صالح لقومه يقول سبحانه : (هذه ناقة الله لكم آية) (٤) .

أما لفظ المعجزة فلم يرد بهذا المعنى فى القرآن الكريم أوفى السنة النبوية المطهرة، لكن مشتقاته وردت فى سبعة عشر موضعا من القرآن الكريم (أعجز - معجزين - معجزين) ومدلولاتها فى هذه المواضع كلها بعيدة كل البعد عما أريد بلفظ المعجزة عند علماء البلاغة والكلام .

وعلى ضوء هذا التمهيد السابق نستطيع أن نسجل ما أسعفنا به اجتهادنا من ملاحظة نراها صالحة لأن تكون ضوابط محكمة لقضية الاعجاز العلمى فى الكتاب والسنة .

القرآن الكريم هو آية الرسالة الخاتمة

زود الرسل الكرام على امتداد التاريخ البشرى بآيات كونية هي فوق مستوى ما وصل اليه البشر من علم كونى فى عصر الرسالة، لتكون بمثابة الدليل والبرهان على أنهم رسل من عند الله فيهدتوا بهديهم، ولا يكون للمكذابين عذر فى تكذيبهم.

والآية الكونية موقوتة بعصرها، وقد يأتى زمان بعدها لاتكون فيه الآية الكونية قادرة على الاقناع، لأن البشر وصلوا من العلم، واكتشفوا من قوانين الكون مايجعل مثل هذه الآية من الأمور المعتادة.

ولأجل هذا شاءت حكمة العليم الخبير أن تكون الآية التى جاء بها رسول الرسالة الخاتمة محمد عليه الصلاة والسلام قادرة على

الاقناع، وعلى ايجاد اليقين فى قلب البشر فى كل عصر ومصر، لأنها رسالة ممتدة امتداد الزمن، وامتداد الحياة البشرية على ظهر البسيطة، أعنى أنها تملك الامتداد الزمانى والمكانى، فاذا وجد معاند فى أى زمان أو مكان فسيجد من آيات الكتاب الحق ما يكبح جماحه ويرد عناده.

وهكذا توالى الأزمان بعد نزول القرآن، ويتقدم علم البشر فاذا بهم يرون فى الكتاب الحق تأييدا لما علموه، وان بدا تعارض وضح للعيان أن القصور فيما علمه الانسان لا فيما آمن به من القرآن. وقد كانت قريش تتصور أن الآية الكونية أقوى من الآية العلمية البيانية التشريعية فطلبت الأولى وألحت فى طلبها: (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ...) (٥) . (وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) (٦) .

فالآية القرآنية تحفل به من أسرار علمية على كل مستويات العلم والمعرفة قادرة على تحقيق الهداية للبشر على اختلاف الأزمنة والأمكنة، فهو الكتاب الذى لا تنقضى عجائبه، والذى لا يخلق على كثرة الرد.

واذا ورد فى السنة النبوية آثار من قبيل الاعجاز الكونى، فليس الغرض منها أن تكون آية، لأن آية الرسالة الخاتمة أسمى من ذلك وأعظم، وانما هى لتكريم النبى صلى الله عليه وسلم، وتثبيت قلوب صحابته فى بعض المواضع.

هذه الحقيقة التى قدمتها تشير بوضوح الى أن الرسالة الخاتمة جاءت ، ونمت وانتشرت فى ظلال العلم والمعرفة، فكان العلم دليل

اثباتها، ومنهج عملها، كما أن التقدم العلمى كان الثمرة الحتمية لتأثيرها عقيدة وشريعة وسلوكاً.
وهذا أحد الضوابط للكتابة فى هذا الموضوع .

علاقة العلم بالايان فى ظلال الاسلام

علاقة العلم بالايان فى الاسلام علاقة متميزة، يقول تبارك وتعالى : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات)(٨٧). فارتفاع المكانة أمر يشترك فيه المؤمنون وأهل العلم جميعاً، والعلم وسيلة جيدة للايمان الصحيح، بل انه الخطوة الأولى على طريقة، فالآيات الأولى من القرآن الكريم نزولاً:

(اقرأ باسم ربك الذى خلق - خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم)(٨) .
وجاء فى الحديث الشريف :

(ومن سلك سبيلاً يلتمس فيه العلم سهل الله له طريقاً الى الجنة)(٩).
وتستبين معالم الخطوة الأولى على طريق الايمان، وهى خطوة علمية كما أشرنا بالتأمل الواعى فى هذه الآيات :

(قل انظروا ماذا فى السموات والأرض)(١٠)

(وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون)(١١).

(أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق) (١٢) .

(أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الأرض كيف سطحت) (١٣).

(أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) (١٤).

هكذا يشد القرآن الكريم أنظار المؤمنين وعقولهم للتدبير فى ملكوت السموات والأرض ، وكشف أسرار الكون وقوانينه وسننه ، وصولا الى ايمان يقينى يكفل الهداية للمسيرة البشرية على الأرض. وهكذا يتضح لنا أن العلم الكونى فى الاسلام من خلال نصوص الكتاب والسنة ليس مجرد قضية تنال أهمية خاصة ، أو فضيلة من الفضائل التى حبب الدين اليها، ولكنه يتجاوز ذلك كله الى كونه أصلا يقوم عليه بناء العقيدة الصحيحة والايمان القويم، ومن هنا فلا نعجب اذا رأينا نحو ثلث آيات الكتاب العزيز دعوة الى التبصر فى الكون والتأمل فيه حتى نعرف الله من خلال مخلوقاته :

(هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه)(١٥).

(فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى

تصرفون) (١٦).

ومثل هذه الآيات ذات الدلالة الخاصة والمصدرة بأسماء الاشارة تأتى تعقيبا على الآيات السابقة تبسط جوانب العظمة فى صنع هذا الكون البديع.

ولأجل هذا كان أعلام هذه الأمة يجمعون بين المعرفة الدينية أعنى علم الكتاب والسنة بجانب معارف الحياة فتجد الطبيب فقيها، وفيلسوبا، والكيميائى محدثا، والفيزيائى مفسرا ولغويا، نذكر على سبيل المثال لا الحصر.الحسن بن الهيثم، وأبابكر الرازى، وابن سينا ، وأبا القاسم الزهراوى، وجابر ابن حيان، وابن النفيس ، ذلك لأن هؤلاء علموا من جوهر الدين الحق أن المعارف لاينفصل بعضها عن بعض، وأن علمك بالله تستمده من كتاب الكون، كما تستمده من الوحي المنزل، ولذا قرر القرآن الكريم أن العلماء هم وحدهم أهل الخشية والتقوى، ولو جهلوا لما خافوا، لأن من جهل شيئا عاداه ونقصه حقه، فقال تعالى:

(انما يخشى الله من عباده العلماء)(١٧).

كما قال فى تفسير شرك المشركين، وسر تورطهم فى ضلاله:

(وما قدروا الله حق قدره)(١٨).

أن حديث القرآن الكريم عن العلم واشادته بالعلماء فى مواطن كثيرة تؤكد أهمية العلم بكل صورته وطرقه فى تثبيت أقدام المؤمنين على طريق الايمان ، يقول جل شأنه:

(قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)(١٩).

كما قال :

(شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة و اولوا العلم قائما

بالقسط)(٢٠).

اذ جعلهم سبحانه شهودا على قضية من أخطر قضايا الاسلام وهى توحيد العبودية .

كما نرى فى قول الرسول عليه الصلاة والسلام:

(طلب العلم فريضة على كل مسلم) (٢١)

بعدا جديدا يكشف عن مدى العلاقة بين الاسلام والعلم.

والجهل مرفوض اسلاميا، لأنه يقف حائلا دون المعرفة

الصحيحة بالله، كما يحول بين الانسان وبين ادراك قوانين الكون التى

تمنحه القوة فى الدنيا، يقول جل شأنه:

(قل أغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون)(٢٢).

الاسلام والعقل

قضية أخرى تضبط الكتابة فى هذا الموضوع الهام وتكشف عن

مدى العلاقة الوثيقة بين الاسلام والنمو العلمى، وأن القدرة على كشف

أسرار الكون وقوانينه تنبع عن فهم واع لما فى الكتاب العزيز والسنة

الصحيحة من توجيهات.

هذه القضية هي احتفاء الاسلام بالعقل، ورعايته له، والتعويل عليه في قضايا العقيدة والتشريع.

فهو في الاسلام مناط التكليف ، فكل عبادة شرعها الله لعباده يشترط في وجوبها العقل، كما أن القرآن الكريم في آيات كثيرة حرك العقل الى التأمل والنظر والتفكر في ملكوت السموات والأرض دعما لليقين، وصونا للعقيدة ، وتأكيذا للايمان الصحيح، ولو أحصينا ما في القرآن الكريم من آيات تتحدث عن العقل ، وما يتصل به من حواس، وعمليات عقلية لوجدنا مئات الآيات تختتم بعبارات (يسمعون - يعقلون - تبصرون - يتذكرون - يتفكرون - أولى الأبواب - أولى الأبصار - ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) (٢٣) . بل ان اهمال عقل المسلم ، أو الغاء المسلم لعقله قد يكون جريمة تؤدي به الى الخسران المبين، يقول رب العالمين :

(ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)(٢٤) . وقد حدثنا القرآن الكريم عن أهل النار، وأنهم في حماة جهنم أدركوا سر ما تورطوا فيه من عذاب مهين فقال جل شأنه :

(وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير، فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير)(٢٥) .

وان التشريع الاسلامي قدّر العقل البشري تقديرا بالغا، فما من تشريع الا وله حكمة، وحكمة بالغة تبهر العقل وتلزمه بالانصياع حتى التشريعات التي عرفت عند الفقهاء بأنها أمور تعبدية يستطيع العقل الواعي، البعيد عن الهوى والتعصب أن يلتمس لها حكما ترضيه، وتقنعه، وقد تكون بعض هذه التشريعات التي بدت في تصور بعض

أسلافنا من الفقهاء أمورا تعبدية، أعنى بلا حكمة ظاهرة ، تحمل سرا كونيا وعلميا تنهياً أسباب كشفه للعلماء المعاصرين .

وقد ساق القرآن الكريم حكما عامة وراء التشريع ، وترك العقل المسلم المجتهد أن يستخرج منها- حسبما تهيئ له ظروف العلم فى عصره - أسراراً ومعارف ذات شأن كبير ، يقول الله تعالى بعد آيات الطهارة:

(ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج، ولكن يريد ليطهركم، وليتم نعمته عليكم ، لعلكم تشكرون)(٢٦).

ورعاية العقل مقصد أسمى فى شريعة الاسلام حتى ان كل ما يضرّ به، أو يضعف امكاناته حرمه الاسلام، وحذر منه، وعد تناوله من قبيل الرجس (٢٧)، وعلى هذا الأساس حرمت الخمر وسائر المخدرات، وما يلحق بها من مشروبات ينحرف الانسان الى تناولها لأنها تتلف جسمه وماله. وبذلك سبقت شريعة الاسلام شريعة الانسان بعشرات القرون على طريق المحافظة على العقل.

كما عدت حماية العقل من الضرورات التى تبيح المحظورات، اذا كان تناول هذا المحظور فى هذا الوقت بالذات يرد عن العقل غائلة تفتك به، أو تعطل وظيفته.

بقى أن نقول ان العقل الذى شرحنا مكانته فى الاسلام نعنى به العقل الصريح المجرد من الأهواء والآفات، المحرر من أسر التقاليد والأوهام والأعراف، لأن مثل هذا العقل لا يتناقض فهمه مع نصوص الشرع وقد عالج هذه القضية علاجاً شاملاً وافياً شيخ الاسلام ابن تيمية فى سفره القيم درء تعارض العقل والنقل، وفيه أكد أن العقل الصريح لا يتناقض مع الدين الصحيح .

وإذا كان الابداع العلمى ثمرة للعقل الواعى فان هذه المكانة التى يحتلها العقل البشرى فى الاسلام لها دلالة واضحة على أن الاعجاز

العلمى فى الكتاب والسنة حقيقة لاحتاج الى بحث ، ولاتتطلب برهاناً، لأنها تجاوزت مرحلة البحث والبراهين، وبذا أصبحت قضية العقل ومكانته فى الاسلام ضابطاً هاماً من ضوابط الكتابة فى الاعجاز العلمى حتى لانتصور أن ما نطلع عليه من أمثلة له مجرد شواهد قليلة، أو مصادفات محدودة ومعدودة.

حقيقة قضية الأعجاز العلمى فى القرآن

وأعبر هنا بلفظ الاعجاز تجاوزاً، والافالتعبير الصحيح على ضوء ما قدمت هو الحقيقة العلمية فى الآية القرآنية : مفهومها ومداهها.
وهذا الأمر يتطلب ابراز حقيقتين هامتين:
أولاهما : أن القرآن الكريم كتاب هداية، مهمته أن يهذى البشر للخطة الراشدة فى أمور الدنيا والدين، أعنى فى علاقة الناس بعضهم ببعض، وبالكون الذى يعيشون فيه، وكذلك فى علاقتهم بالله خالق كل شئ، وبالعالم الغيب بعامة، يقول جل شأنه:
(ان هذا القرآن يهذى للتى هى أقوم) (٢٨).
(ذلك الكتاب لارىب فيه هدى للمتقين) (٢٩).
(قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهذى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) (٣٠).

والهداية فى القرآن قضية عظيمة الشأن، عميقة الأثر ليست مجرد أوامر ، وتوجيهات للعقل البشرى بما فيه سداه ورشده، وانما هى بجانب ذلك تضم وسائل الاقناع المتعددة التى تحمل فى طياتها من سنن الكون قوانينه مايلزم العقل بالاستجابة والاذعان والانصياع .

وهنا نصل الى الحقيقة الأخرى:

وهى أن الاعجاز العلمى فى القرآن ليس هدفا أساسيا للمهمة القرآنية، وانما نرى القرآن الكريم فى أحاديثه الهادية يعرض حقائق ثابتة راسخة، نستنتج منها السبق العلمى بطريق التبع .

والقرآن الكريم ليس كتابا فى الطب أو الفيزياء أو الكيمياء أو الفلك ، وانما هو كتاب هداية فهو أسمى من ذلك و أكبر غير أنه يتضمن حقائق فى هذه المعارف تذهل من نبغوا فيها فى عصرنا الحاضر، فينقدح فى أذهانهم حق كانوا فى ريب منه، وهو أنه من عند الله، فيبهتدون الى الاسلام، وبذا تتحقق المهمة القرآنية فى رشدنا وسموها.

وليس فى صالح الكتاب الحق أن يسارع حافظوه ، ودراسوه، والمؤمنون به الى ملاحقة ما يظهر فى محيط العالم من نظريات علمية فى الشرق والغرب ليقولوا انها فى القرآن الكريم، اذ أن كثيرا من نظريات العلماء يظهر فسادها وبطلانها بعد حين، وتظهر نظرية أخرى تعارضها، أما عندما تتحول الفروض العلمية الى حقائق يشهد بها الواقع المحسن عند ذاك نجد ما يصدقها فى الكتاب العزيز. ولكى تتضح هاتان الحقيقتان أسوق عددا من الشواهد القرآنية التى تشير الى حقائق علمية أذهلت المعاصرين من العلماء، ووقفوا أمامها مشدوهين، لايسعهم إلا التسليم لآية القرآن الكريم. من ذلك قوله تعالى :

(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) (٣١). يستوقفنا فى هذه الآية أمران، وراء كل منهما حقيقة علمية. ومهمة الآية التحذير من الشرك والدعوة الى العبودية الخالصة لله

وحده، وفي سبيل هذه المهمة الجليلة قدمت الآية ما قدمت من حقائق علمية :

أول الأمرين قوله تعالى (اتخذت بيتا) بتأنيث الفعل، واللفظ من حيث هو حقه التذكير، وهنا نرى الحس العلمى الصادق يحل المشكلة اللغوية، وذلك لأن المعلوم من طبائع الحيوان أن أنثى العنكبوت هى التى تبني البيت.

والآخر : تشبيه المشرك بالله بالعنكبوت اتخذت بيتا . ويتوقف البلاغيون كثيرا، ويذهبون فى وجه الشبه كل مذهب، والحس العلمى الواعى يكشف الخفى من وجه الشبه عندما نعلم أن بيت العنكبوت هو البيت الوحيد الذى يفقد فيه صاحبه أمنه ؟ لأن الأنثى تقتل الذكر بعد اللقاح. والشرك بالله باتخاذ الأولياء من دونه مضيع للأمن، قال سبحانه: (ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق)(٣٢).

ان هذه الصورة التى تذكرها الآية أصعب موقف يمر به البشر، اذ يملكه خوف بالغ قد يفقده حياته ، وقد ذكر العلماء أن الذى يسقط من مكان عال قد يموت قبل أن يصل الى الأرض وسبب وفاته الصدمة العصبية. فالآية اذن تشبه الخوف الذى يحل بالمشرك بسبب شركه، بخوف ذكر العنكبوت فى بيته، والوهن هنا الذى ذكرته الآية هو الوهن فى العلاقة الأسرية.

وشاهد آخر، قوله تعالى :

(ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا

تسعا)(٣٣).

ان المهمة التى تقوم بها الآية وهى تقدم لنا أخبار أهل الكهف أن تبين عدد السنين التى مكثوها بعد أن ظنوا أنهم لبثوا

يوما أو بعض يوم. وفى سبيل هذه الغاية قدمت الآية حقيقة فلكية، عظيمة الشأن، لم تصغ صياغة علمية لكن دل عليها النظم القرآنى، وهو آية أخرى فى حد ذاته. فلم اختارت الآية هذا التعبير: (وازدادوا تسعا) دون (ثلاث مائة سنين وتسعا)؟، لكن الحاسة العلمية الواعية عند عالم الفلك المسلم تقرر أن وراء هذه الصياغة حقيقة عجيبة هى أن ٣٠٩ سنة بالتقويم القمري تساوى بالضبط ٣٠٠ سنة بالتقويم الشمسى، وهذا أمر لم يعرفه الفلكيون الا أخيرا، ان الفرق بين السنة القمرية والشمسية فرق دقيق فيه السنوات والشهور والأيام والساعات والدقائق، وكسور الدقائق والثوانى، وإذا ضربته فى ثلاثمائة ستكون النتيجة تسع سنوات كاملة.

ان هذه الحقيقة جاءت عرضا فى السياق، ولم تكن

مقصودة.

وتمت شاهد ثالث :

هو قول الله تعالى :

(ألم تر أن الله يزجى سحابا، ثم يؤلف بينه، ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله، وينزل من السماء من جبال فيها من برد، فيصيب به من يشاء، ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار. يقرب الله الليل والنهار، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار)(٣٤).

هذه الآية تقدم مشهدا من مشاهد الكون، دالا على عظمة الله وقدرته فى خلقه، وهذا المشهد يتمثل فى ظاهرة السحب الركامية التى ينشأ عن احتكاكها البرق، ويتساقط منها البرد، وأن من يسير فى قلب هذه السحب قد يفقد الابصار بصفة مؤقتة.

والغريب أن علماء الفلك لم يعرفوا هذه الحقائق عن السحب
الركامية الا خلال الحرب العالمية الثانية عندما وقعت حوادث لبعض
الطائرات التي تتوغل فى مناطق السحب الركامية ويرى الطيار أنه فقد
الرؤية.

وصدق الله العظيم اذ يقول:

(وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه)(٣٥) .

شاهد رابع :

يقول الله تعالى فى وصف عباد الرحمن :

(وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا) (٣٦) .

ان المهمة الأصلية للآية أن تكشف عن قيمة قراءة القرآن عند
الفجر، وما تمنحه للقارئ من جرعة ايمانية، ولاعجب فهى قراءة
تشهدها الملائكة الذين يتعاقبون فى صلاتى العصر والفجر كما جاء
فى الحديث الصحيح الذى يرويه البخارى.

لكن الحس العلمى يدرك وراء ذلك شيئا آخر، ولا حرج عليه،
لأن ادراكه خطوة هامة على طريق دعم الايمان.

لقد أثبتت البحوث العلمية أن أعلى نسبة لغاز الأرزون فى الجو
تكون عند الفجر، وتقل تدريجيا حتى تضحل عند طلوع الشمس،
وهذا الغاز مفيد للجهاز العصبى، ومنشط للعمل الفكرى والعضلى كما
أن أشعة الشمس عند شروقها قريبة من اللون الأحمر، المثير
للأعصاب، والباعث لليقظة والحركة، ونسبة الأشعة فوق البنفسجية
تكون أكبر ما يمكن عند الشروق، وهذه الأشعة تحرك الجلد لنصع
فيتامين (د). كما ثبت أن أعلى نسبة (للكورتوزن) تكون فى الصباح ،
وتتخفف تدريجيا فى المساء، ومن المعلوم طبيا أن الكورتوزن يزيد

السكر فى الدم، وبذلك تتولد الطاقة اللازمة والضرورية للحيوية والنشاط اليومى.

هذه استنتاجات لعلماء الطب لانستطيع أن نقول انها كانت فى حساب الآيه الكريمة، انما الذى يقع فى حساب الآيه هو الالتزام بما فيها من توجيه، مع اليقين الكامل بأن ماوراء الأمر الالهى من آثار جانبية، أو ما يودى الى تنفيذه من وسائل حقائق علمية لاريب فيها، هى غير مراده لكنها واقعة.

شاهد خامس :

قال الله تعالى :

(فأجاءها المخاض الى جذع النخلة، قالت ياليتنى متّ قبل هذا وكنت نسيا منسيا، فناداها من تحتها الا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا. وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) (٣٧).

الآيه الكريمة تصف الحالة النفسية لمريم رضى الله عنها عند المخاض، وقد أحاطت بها آلام قاسية! اذ كيف تواجه بنى اسرائيل بمولودها ، وهى تعرف قسوة ألسنتهم الباغية ، وهنا ييسر الله تبارك وتعالى لها ما يذهب عنها احساسها الألم.

وهنا يلتقط الحس العلمى حقيقة طبية، لم يتوصل اليها العلم الا فى العصر الحاضر ، هذه الحقيقة تتمثل فى ثمار النخيل. لقد تبين من الأبحاث والتجارب الطبية التى أجريت على ثمار النخيل أنها تحوى مادة قابضة للرحم، تقوى عمل عضلات الرحم فى الأشهر الأخيرة للحمل ، فتساعد على الولادة، وتقلل عمليات النزف بعد الولادة، كما أن الرطب يحتوى على كمية كبيرة عن سكر الكلوكوز، مصدر الطاقة الأساسية للعضلات، وخصوصا عضلات الرحم التى تتعرض لاجهاد كبير أثناء الولادة، كما أنه مادة ملينة تنظف القولون، فتسهل عملية الولادة.

شاهد سادس :

(حملته أمه كرها ووضعته كرها، وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) (٣٨).

تصف الآية ما تبذله الأم من معاناة فى سبيل ولدها، مما يتطلب البر بها، ورعاية حقوقها لكن الآية تسوق فى خلال هذه القيمة الخلقية والانسانية والاجتماعية حقيقة علمية تعد سبقا بارزا فى مجال الطب، ذلك أن هذه الآية لو وضعنا بجانبها الآية الأخرى من سورة البقرة وهى قوله تعالى:

(والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) (٣٩). نصل الى أن مدة الحمل هى ستة أشهر على الأقل، بعد استبعاد العامين من مدة الحمل والفصال.

وهذا أمر لم يدرك البحث الطبى الا أخيرا . لقد قدرت المنظمة الصحية العالمية أن أقل مدة للحمل هى ستة أشهر، وهى أقل مدة للحمل يمكن أن يبقى الجنين بعدها حيا، فالولادة قبلها تسمى اسقاطا، والجنين يكون ميتا، وهى المدة المعتمدة الآن قانونيا فى جميع محاكم الدول العالمية (٤٠).

وغير ذلك من الشواهد كثير ، تؤكد ما قررته من ضوابط هى أن القرآن كتاب هداية والهداية القرآنية تساعد من خلالها حقائق ثابتة نستنتج منها السبق العلمى بطريق التبع.

أسلوب الحقائق العلمية فى القرآن

جاءت الحقائق العلمية فى القرآن على الصورة التى شرحتها، وذكرت مداها فى اطار الشواهد التى قدمتها، وكان ذلك فى أسلوب متميز يعطى الانسان ما يقنعه، ويمنحه اليقين فى كل عصر، وبالمقدار الذى تسعه مداركه، واكتشافاته لقوانين الحياة والكون . وهذه الشواهد

التي ذكرتها قرأها المسلمون في القرن الأول، وتدبروها وحملوا من هداها ما يعزز الايمان في نفوسهم، لكننا لانستطيع أن ندعى أنهم عرفوا منها من حقائق العلم ما عرفه علماء اليوم من آيات الكتاب العزيز .

فالآية من سورة النور التي وضعت بدقة السحب الركامية بصورة أذهلت الفلكيين المعاصرين ، عرف منها القوم في عصر البعثة أنها دلالة على تغيرات جوية ضارة كما قال سبحانه:

(وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم)(٤١).

فالصياغة القرآنية للحقائق العلمية صياغة عامة تتيح للمتدبر في كل عصر حظا معيناً من المعرفة الهادية بقدر استعداده، انظر مثلا الى قوله تعالى :

(ويسألونك عن المحيض. قل هو أذى، فاعتزلوا النساء في المحيض، ولا تقربوهن حتى يطهرن)(٤٢) .

فذكرت الآية أن الجماع أيام الحيض أذى، وتتحدد أبعاد هذه الأذى بتطور علوم الانسان ومعارفه، والانسان في كل طور يجد في هذا التعبير ما يغنيه ويكفيه .

ومن أجل هذا يكون من غير الوارد على الاطلاق القول بأن القرآن الكريم يقدم حقائق علمية لم يتأهل لها القوم، وانما الصحيح أن يقال ان ذلك يعد تأكيدا لامتداد مهمة الهداية القرآنية بامتداد الزمن، وامتداد معارف البشر، ونمائهم العلمي بطريقة حاسمة وقاطعة.

ان القرآن الكريم كتاب للحياة ومنهج للأحياء يعالج كل حاجات البشر، كما قال سبحانه :

(ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى

للمسلمين)(٤٣).

ومن هنا فالآية القرآنية ذات حيوية لاتذبل ولاتخبو، وهي مستمرة

فى هدايتها، كما أنها أيضا مستمرة فيما تملكه من أسباب الالزام،
والافحام .

اننا نستطيع أن نقول ان المعارف العلمية فى القرآن نابعة من
خصيصة قرآنية هى أن القرآن الكريم كتاب حق، فليس فيه سوى الحق
سواء فى مجال الوسائل أم المقاصد.

القرآن الكريم منبع المعارف

كان نزول القرآن الكريم بجانب ما يحتويه من معارف شتى تتصل
بسفن الكون وقوانين الحياة، تتكشف أسرارها للبشر حيناً بعد حين
باعثاً لقيام حركة علمية متعددة المجالات ، متنوعة الميادين.

فقد كان آية رائعة فى لغته، ومن هنا تحرك الغير من العلماء الى
وضع قواعد لأبنية الكلمات، وقواعد للتراكيب والاعراب حتى لا يقع
القارئ المسلم فى أى خطأ منها نحوياً أو صرفياً وهو يتدارس الكتاب
العزیز، فالذين فكروا فى وضع قواعد النحو والصرف كان الباعث لهم
صون اللسان عن الخطأ فى الكتاب العزیز.

والعلماء الذين فكروا فى وضع مقاييس للبلاغة العربية كان الحافز
لهم على بذل هذا الجهد هو الكشف عن أبعاد المعجزة القرآنية،
وروعة آيته .

والعلماء الذين توفروا على العلم التجريبي فى مجالاته المختلفة
من طب وفيزياء وكيمياء وصيدلة ونحوها أمثال ابن سينا، وأبى القاسم
الزهرائى وجابر بن حيان، وأبى الحسن بن الهيثم اتجهوا الى هذه
العلوم بتأثير الكتاب العزیز الذى حرك هذه الأمة الى البحث،
والدرس، والنظر فى ملكوت السموات والأرض، وأدركوا بصدق النظر
وسعة العقل أن الهداية القرآنية جاءت فى اطار من الحقائق العلمية

التي يستحيل نقضها في يوم من الأيام، لأنها من لدن حكيم خبير، خلق كل شئ وهو على كل شئ وكيل.

ومن هنا فالآية القرآنية مستمرة مهما تقدم الانسان في مجال العلم واتساع كشوفه لقوانين الكون، وسنن الحياة، وابتكر ما ابتكر من الآت تروع وتدهش، فانه عندما يكون بصدد الكتاب العزيز ان كان مؤمنا ازداد ايمانا على ايمانه، ورسخ في الأعماق يقينه، وان كان معاندا أو مكابرا فانه سيجد في القرآن الكريم ما يفحمه ويلزمه ويكشف ضلال سعيه وفساد حجته.

السنة النبوية وقضية الاعجاز العلمي

السنة النبوية المطهرة هي المنهج النبوي في تطبيق القرآن الكريم ، وتحويله الى واقع محسوس، ليكون قوة يسير الناس على نهجها، ومن هنا زكى الله تعالى عمل نبيه وأمرنا بطاعته والاقتراء به، فقال سبحانه:

(لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيرا)(٤٤).

وقال جل شأنه:

(وان تطيعوه تهتدوا) (٤٥).

وعلى ضوء هذا نجد فى سنة النبى صلى الله عليه وسلم سواء أكانت عملية أم قوله تطبيقات سديدة للكتاب العزيز كما نجد فيها توجيهات طيبة تفيد المسلم فى دينه وفى ماله، وفى بدنه، وفى علاقاته مع الناس ، كما أننا اذا قلنا السنة، نعنى السنة الصحيحة التى ثبتت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهو فى هذه التوجيهات يسبق زمانه بقرون عديدة، وفى توجيهاته أمور يذهل لها علماء الطب، والنفس، والاجتماع، والسياسة، ويعجبون

كيف تصدر هذه التوجيهات من رجل عاش في قلب الصحراء، ولم يدرس علم الحضارة؟ ولم يجلس الى معلم؟ وفاتهم الحقيقة الكبرى، وهو أنه معلم من الله ويحمل حقا يبلغه عن الله، والحق قضية ثابتة تفرض وجودها على اختلاف الأزمنة والبقاع، يقول سبحانه :
(وعلمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيما) (٤٦).
وقال جل شأنه:

(وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتتهدى الى صراط مستقيم) (٤٧).

لقد قدم النبي صلى الله عليه وسلم توجيهات في الطب الوقائي سبق بها عصره وهو في توجيهه يشرح شعيرة، أو يبين عبادة، ويأتي بطريق التبع ما يتضمن التوجيه من فائدة صحية أو وقائية.

وأحيانا يكون الهدف من التوجيه حماية الجسم بمنهج لم يعرفه أهل زمانه، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم:

(نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، واذا أكلنا لانشبع)

وكذلك ماروى عن أبي مالك الأنصارى أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال :

(الطهور شرط الايمان) (٤٨).

اذ جعل الطهارة وهى ركن هام من أركان الصحة الوقائية نصف الايمان. وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

(لايبولن أحدكم فى الماء الدائم ثم يغتسل فيه) (٤٩) .

وقوله أيضا .

(اتقوا اللاعنين، قالوا وما اللاعنان يارسول الله ؟ قال : الذى

يتخلى فى طريق الناس وظلمهم) (٥٠).

وفى هذين الحديثين توجيهات من شأنها أن تحمى المجتمع المسلم من أمراض فاتكة.

وعلى هذا الطريق نفسه طريق الوقاية نجد النبي صلى الله عليه وسلم فى مقام التوجيه الى أمور مستحبه عند الوضوء يقول:
(إذا استيقظ أحدكم من نومه، فلا يغمس يده فى الأثناء حتى يغسلها ثلاثا فإنه لا يدرى أين باتت يده) (٥١).

حتى ان أحدث وسائل الوقاية التى عرفها الانسان المعاصر دعا اليها النبي عليه الصلاة والسلام منذ أربعة عشر قرنا، وذلك فيما يرويه عبدالرحمن بن عوف من قول النبي صلى الله عليه وسلم :
(إذا ظهر الطاعون وأنتم فى بلد فلا تخرجوا منها، وان ظهر وأنتم خارجها فلا تدخلوا فيها) (٥٢).

وطبق عمر بن الخطاب هذا التوجيه الكريم، وهو ذاهب الى فلسطين، وعلم بطاعون عمواس.
وفى السنة النبوية غير ذلك كثير وكثير، ولكننا نقدم أمثلة فقط، حفاظا على خطة هذا البحث الذى يرمى الى مجرد وضع ضوابط للكتابة فى هذا الموضوع.

ومن أجل هذا ونحن نعرض ما نعرض من توجيهات نبوية كريمة تؤكد تأكيدا قويا أن النبي محمدا عليه الصلاة والسلام لم يكن فيما قدم من هذه التوجيهات طبيا، أو خبيرا فى الصحة الوقائية، ولا ندعى أنه أحد أعلام الهندسة أو الفلك، أو الكيمياء، أو الفيزياء، ولكنه رسول من عند الله، علمه ربه، وزوده بالحق، فاستمت توجيهاته بالحكمة والسداد، وتضمنت بجانب الهداية وهى مهمته الأولى ملاحظات علمية صادقة تنقطع دونها همم العلماء التجريبيين فى كل زمان ومكان.
مصدق ذلك عندما طلبت منه قريش أن يفجر لهم أرض مكة يناعى، أو تكون له بين وديانها الجرداء جنة من نخيل وعنب تتفجر

خلالها الأنهار، أو يكون له بيت من زخرف، أو يصعد أمامهم الى السماء فيأمره ربه بأن يرد على هؤلاء الذين يطلبون منه ما هو خارج عن مهمته، وما هو غير محسوب في أهدافه:

(قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا)(٥٣).

الى أن يقول :

(ومن يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجدلهم أولياء من

دونه)(٥٤).

لقد أدرك علماء الغرب أبعاد العظمة في حياة النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، وروعة الحكمة في منطقته حتى انه اذا تكلم في أى شأن من شؤون الحياة أجاد وأفاد:

(وما ينطق عن المهوى ان هو الا وحي يوحى)(٥٥).

تلكم حقيقة أخرى وأخيرة نضعها في ختام الضوابط التي نراها كفيلة باستقامة البحث والكتابة حول موضوع الاعجاز العلمى فى الكتاب والسنة.

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

خاتمة

فى ختام هذا البحث أرجو الله تبارك وتعالى أن أكون قد وفقت فيما اجتهد فى وضعه من ضوابط للكتابة فى موضوع الاعجاز العلمى فى الكتاب والسنة ، هذه الضوابط التى أوجزها فيما يلى:

(١) القرآن الكريم آية الرسالة الخاتمة.

(٢) علاقة العلم بالايمان فى ظلال الاسلام، وأنها كعلاقة الوسيلة بالغاية.

(٣) الاسلام يمجد العقل الصحيح ويحتفى به باعتباره وسيلة هادية.

(٤) الاعجاز العلمى فى القرآن ليس هدفا لذاته، لأن القرآن

الكريم كتاب هداية.

- (٥) الحقائق العلمية فى القرآن لها نمط أسلوبى معين.
- (٦) القرآن الكريم منبع لكل المعارف.
- (٧) النواحي العلمية فى السنة، وما فيها من سبق علمى قد تكون بطريق التبع، وقد تأتى توجيهات مقصودة لذاتها.
- أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه محققا للغاية منه .
- وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب.

هوامش

- ١ - سورة العنكبوت - آية ٥٠
- ٢ - سورة الأعراف - آية ١٠٦
- ٣ - سورة الأعراف - آية ١٣٢
- ٤ - سورة الأعراف - آية ٧٣
- ٥ - سورة الاسراء - آية ٩٣
- ٦ - سورة العنكبوت - آية ٥٠، ٥١
- ٧ - سورة المجادلة - آية ١١
- ٨ - سورة العلق - آية ١ - ٥
- ٩ - رواه الشيخان
- ١٠ - سورة يونس - آية ١٠١
- ١١ - سورة الذاريات - آية ٢٠، ٢١
- ١٢ - سورة الروم - آية ٨
- ١٣ - سورة الشمس - آية ٧ - ٢٠
- ١٤ - سورة ق - آية ٦ - ٨
- ١٥ - سورة لقمان - آية ١١
- ١٦ - سورة يونس - آية ٣٢
- ١٧ - سورة فاطر - آية ٢٨
- ١٨ - سورة الحج - آية ٧٤
- ١٩ - سورة الزمر - آية ٩
- ٢٠ - سورة آل عمران - آية ١٨

- ٢١ - حديث متفق عليه
- ٢٢ - سورة الزمر - آية ٦٤
- ٢٣ - سورة ق - آية ٣٧
- ٢٤ - سورة الأعراف - آية ١٧٩
- ٢٥ - سورة الملك - آية ١٠ ، ١١
- ٢٦ - سورة المائدة - آية ٦
- ٢٧ - انظر قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) - سورة المائدة - آية ٩٠
- ٢٨ - سورة الاسراء - آية ٩
- ٢٩ - سورة البقرة - آية ٢
- ٣٠ - سورة المائدة - آية ١٥
- ٣١ - سورة العنكبوت - آية ٤١
- ٣٢ - سورة الحج - آية ٣١
- ٣٣ - سورة الكهف - آية ٢٥
- ٣٤ - سورة النور - آية ٤٣ ، ٤٤
- ٣٥ - سورة فصلت - آية ٤١ ، ٤٢
- ٣٦ - سورة الاسراء - آية ٧٨
- ٣٧ - سورة مريم - آية ٢٣ - ٢٥
- ٣٨ - سورة الأحقاف - آية ١٥
- ٣٩ - سورة البقرة - آية ٢٣٣
- ٤٠ - انظر فيما ذكرناه حول الشواهد السابقة : الاسلام والطب الحديث للدكتور عبدالعزيز باشا اسماعيل ، وكتاب حوار مع صديقي الملحد للدكتور مصطفى محمود، ومدة الحمل من الناحية الفقهية والقانونية للدكتور عبدالرزاق حمامي.
- ٤١ - سورة الطور - آية ٤٤
- ٤٢ - سورة البقرة - آية ٢٣٢
- ٤٣ - سورة النحل - آية ٨٩
- ٤٤ - سورة الأحزاب - آية ٢١
- ٤٥ - سورة النور - آية ٥٤
- ٤٦ - سورة النساء - آية ١١٣
- ٤٧ - سورة الشورى - آية ٥٢
- ٤٨ - رواه مسلم
- ٤٩ - أخرجه البخارى
- ٥٠ - رواه مسلم، والامام أحمد
- ٥١ - أخرجه البخارى .
- ٥٢ - أخرجه البخارى
- ٥٣ - سورة الاسراء - آية ٩٣
- ٥٤ - سورة الاسراء - آية ٩٧
- ٥٥ - سورة النجم - آية ٣ - ٤

